الخروج من الميترو.. الى الحرية

كانت محطة الميترو غاصة بالركاب، وهم يسرعون مزدحمين نحو باب الخروج، نحو الهواء والحرية.

وكانت عائشة، وعمرها ٢٤ سنة، قد أخذت الميترو، فهي لا تملك النقود لاخذ الطاكسي. صعدت أدراج الميترو وهي موزعة بين القلق والامل في أن تخرج هذه المرة أيضا، بدون مشكل. رفعت عينها لترى شرطيين! فسيطرت على ذهنها فكرة الوقوع في الفخ. فاما أنها ستقع أو ستمر سالمة. لكن هناك لونها. صاح فيها الشرطيان: "أوراقك".

لم تكن لديها أوراق. شرحت وضعيتها، لكنها سيقت الى أقرب مركز للشرطة الذى اتصل هاتفيا بالعمالة، فكان الجواب أن عائشة "قادمة جديدة" وأن الهجرة قد توقفت، فهي اذن في وضعية غير قانونية.

لكن الحقيقة هي أن عائشة ابنة من والدين أجنبيين عاشت معهما في فرنسا عندما كانت صغيرة. وعند طلاق والديها، بقيت تحت رعاية أمها التي بقيت في فرنسا. الا أن الاب، وهو تونسي، استغل حقه في زيارة ابنته، فاختطفها، وأخذها الى تونس، رغم منع اخراجها من التراب الفرنسي.

ومن المعروف أن أية محكمة فرنسية ليست لها صلاحية تنفيذ حكمها بارجاع الطفلة الى أمها.

ولم تتمكن عائشة، التي كان أبوها يراقبها بشدة، لم تتمكن من الخروج من تونس الا في سن ٢٤ سنة، وهي واثقة من أن فرنسا ستسلمها أوراقها.

لكن هذا لم يحصل، والعمالة لم تدرس وضعيتها، بل انها غطت الاختطاف الذى قام به الاب، وخالفت قرار قاضي الطلاق. وهكذا أعطيت لعائشة مدة ١٥ يوما لتغادر التراب الفرنسي.

حكمـــت المحكمـــــة

طوال ٢٤ ساعة، بقي حبيب (جزائرى، ٢٩ سنة) ينتظر وهو ملقى في سيارة الشرطة، ثم وضع تحت "الحراسة النظرية"، متعرضا للضرب والشتم: "عربي وسخ"، "عد الى الجزائر"... وأخيرا، سيستقبل من طرف العدالة لتستمع له.

انه لا يعرف جيدا كلمة "جلسة استماع"، لكنه شاهد في التلفزيون السيد فلان، أو مسؤولين نقابيين يخرجون من الجلسة التي خصصها لهم هذا الوزير أو ذاك، وكانوا يبدون مرتاحين، لانهم تمكنوا من التعبير عما يشتكون منه، ووجدوا من ينصت اليهم ويعالج شؤونهم.

مثل حبيب أمام جلسة الاستماع الخاصة بتهم التلبس، لكن قيل له أنه لن يحاكم هذا المساء، لان ملفه العدلي لم يصل بعد الى المحكمة. فعليه اذن، أن ينتظر جلسة الاستماع القادمة.. مع عائلته؟ لا، بل في الاعتقال المؤقت. انه سينتظر ثلاثة أسابيع.

لكنه تمكن من الاتصال بمحاميه، فاستعاد الامل. انه ليس مجرما. وأخيرا، تسلم ورقة زرقاء: "أنت مستدعى الى جلسة الاستماع بالغرفة الجنائية الفلانية، على الساعة الواحدة والنصف".

هذه المرة، ستكون جلسة استماع حقيقية. سيتمكن من شرح وضعيته، وسيستمع اليه القضاة، ويقتنعون بآرائه. ورأى من بين المتهمين شابا فرنسيا من نفس السن، يتقدم أمام المحكمة.

أدار الفرنسي وجهه نحو أبويه، وهما بلباس تقليدى من نوع الطبقات المتوسطة، بينما أدار حبيب وجهه نحو أخته وأمه، وقد بدت على وجهيهما علامات التعب والقلق. لكن العدالة واحدة بالنسبة للجميع، وقد عادت الثقة الى نفس حبيب، عندما رأى أن الفرنسي سيحاكم معه في وقت واحد.

الحاجب: محكمة!

الرئيس: فتحت الجلسة.

الحاجب: القضية الاولى: فيليب س.

قام فيليب بهدوء، وفي يده ملف أسود.

الرئيس: أنت متهم بدخول مستودع للسيارات بأحد العمارات، وسرقة سيارة استعملتها ليلا، مسافة ٣٠٠ كلم. ان هذه الوقائع خطيرة: السرقة بالليل. لماذا فعلت هذا؟

فيليب س: لقد أردت الذهاب عند بعض أصدقائي، ولم أكن أريد أن

يعرف والدى ذلك، فلم أطلب سيارتهما.

الرئيس: هل لديك عمل؟

فيليب س: تقدمت لبعض الامتحانات، ونجحت فيها، وأنا الان أشتغل بالمصلحة الادارية لاحدى المنشآت.

المدعي العام: ان هذا الشاب ارتكب سرقة موصوفة تستحق عقابا قاسيا. لكن ليست له سوابق قضائية. وهو شاب، فلذلك أفوّض أمره الى المحكمة.

المحامي: ان فيليب يعترف بالوقائع، لكن مجرد استدعائه من طرف العدالة هي تجربة جعلته يفكر، ووالديه يشكلان ضمانة أخلاقية. لذلك أطالب باطلاق سراحه. واذا كان على المحكمة أن تنطق بحكم، فأرجو أن لا يسجل هذا الحكم في ملفه العدلي حتى لا يقع له احراج في المستقبل.

الرئيس: المداولات بعد رفع الجلسة.

الحاجب: القضية الثانية: حبيب س.

قام حبيب وهو موزع بين الامل والقلق الذى شل صوته. فمثل أمام المحكمة ويده اليمنى في جيبه.

الرئيس: حبيب س، ان ملفك العدلي بين يدى المحكمة اليوم، ولم يسبق لك أن حوكمت. أنت متهم بنية سرقة سيدة كبيرة بحي "لاديفانس" لحظة خروجها من الميترو على الساعة التاسعة صباحا. ماذا تقول في هذه الوقائع؟

حبيب: انني لم أرد سرقة هذه السيدة. لم تكن لدى تذكرة، وكنت أريد عبور حاجز الخروج في نفس الوقت معها، ولهذا اقتربت منها.

الرئيس: لكن أحد الركاب أكد أنك كنت تنوى فتح حقيبتها، فنادى على رجال وكالة النقل الذين وضعوك بين أيدى الشرطة. والمحضر يشير الى ما أكده الشاهد، ويقول أن السيدة غابت وسط الجمهور دون الانتباه الى شيء.

حبيب: لم تكن لي أبدا نية في سرقة هذه السيدة. كنت أريد فقط أن أعبر الحاجز.

الرئيس: السيد المدعي العام، هل استدعي الشاهد الى جلسة الاستماع؟ منذ ثلاثة أسابيع كان يمكن استدعاؤه.

المدعي العام: لا.

الرئيس: هل لديك عمل؟

حبيب: بعد حصولي على شهادة الكفاءة المهنية، اشتغلت عدة أشهر. ثم وقع تسريحي بسبب انعدام الشغل. وأنا أجد العمل من وقت لاخر، عن طريق وكالات العمل المؤقت.

الرئيس: ان المحكمة تولي أهمية خاصة للسرقة في الميترو، حيث ينبغي أخذ السواح بعين الاعتبار، واعطائهم صورة حسنة عن الميترو.

المدعي العام : ان الوقائع ثابتة. سوف يطلب منا التسامح مع شاب مهاجر عاطل . لكن قاعدتنا هنا ، هي تطبيق القانون على الفرنسيين والاجانب بنفس الطريقة. ان من غير المقبول المس بالسيدات المسنات . ان نية السرقة قائمة ، ومثل هذه السرقة تعاقب. فأنا أطلب شهرا حبسا .

الرئيس: اذا كنت حريصا على ذلك ، يمكنني تأجيل القضية الى جلسة لاحقة ، واستدعاء الشاهد .

المحامي : وفي انتظار ذلك ، هل سيعود حبيب الى السجن؟ ان ثلاثة أسابيع من الاعتقال المؤقت الذى لا مبرر له كافية. ان حبيب أكثر صدقا من هذا الشاهد الذى يبدو أنه لم يقدر نتائج أقواله. ثم ان حبيب لم يكن بامكانه أن يفتح حقيبة السيدة بسهولة ، فنصف يده اليمنى مقطوع في حادثة.

الرئيس (وهو يبدو متشككا) : سيدى المحامي ، لقد شاهدت هنا لصوصا ويدهم في الجبس.

المحامي : اذن ، فاطلبوا من حبيب أن يريكم يده.

أخرج حبيب يده من جيبه وهو خجول بعض الشيء ، فأثار انتباها شديدا لدى القضاة الذين لم يرو هذه اليد في الجلسة الاولى .

المحامي : ان حبيب لم يكن موضوع أى تقرير سيء من طرف مصالح الشرطة ، وألح على أنكم لا يمكنكم الحكم عليه بناء على أقوال شاهد لم يؤد القسم ، تخيّل نية السرقة في ميترو على الساعة التاسعة صباحا لاسباب لا يمكننا أن نسأله عنها .

ان حياة وعمل الشبان المهاجرين صعبة جدا في الوقت الحاضر ، الى حد لا يسمح لكم بأن تضروا بمستقبل حبيب ، الذى يعيش حياة لا غبار عليها ، في عائلة هي ضمانة لكم. ان اقامة حبيب في فرنسا ، وعمله ومستقبله مرهون الى حد كبير ، باستخفاف هذا الشاهد ، الذى يمكن أن نتساءل عما كان سيقول لو صدر نفس السلوك عن شاب فرنسي حسن اللباس. انني أطلب اطلاق السراح.

بعد المداولات حول قضيتي فيليب وحبيب ، عادت المحكمة.

الرئيس: بعد المداولات ، أقرت المحكمة بارتكاب فيليب س وحبيب س للوقائع المسندة اليهما ، وأعفت فيليب س من الحكم ، وحكمت على حبيب س بشهر نافذ من الحبس.

رفعت الجلسة.

لقد كان أجدر بالعدالة الفرنسية أن لا يشاهد حبيب في التلفزيون رجالا ونساءا يخرجون من جلسات الاستماع ، التي خصصتها لهم السلطة. فلولا ذلك لما وضع حبيب كل أمله في العدالة.

برنار ريتنباك

البطالة

1,07 × 1,07 - 1982